التنكر

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

قلت مرة لنفسي : « لماذا لا أخرج للناس متنكراً كما كان يفعل الولاة والسلاطين والخلفاء وفيما تحدثنا الروايات أو الخرافات ؟ »

وليست لي رعية أتفقدها ، ولا لي شعب أتعهد مرافقه ومراشده ، ولكن هذا الخاطر استبد بي مع ذلك فلم يسعني إلا أن أجري معه إلى حيث يومىء ؛ والتنكر فن ، واتقانه لا يتسنى إلا بالتدرب ، ولكن قلت إن الله ركب لي في وجهي عينين أنظر بهما ، وعندي مرآة تستطيع أن تريني هل وفقت أو أخفقت ، وفي وسعي أن أعيد التجربة مرة وأخرى فلا أبرز للناس إلا وأنا مطمئن القلب

وقد كان . اشتريت لحية كثة طويلة — شبراً وبعض شبر إذا أردت الدقة — وشاربين وحاجبين ، ومسحوقاً أبيض أنفضه على شعر رأسي ، وشرعت أجرب — أعني ألصق هذه الأشياء بوجهي ، وعيني على المرآة ، وكنت أوصد الباب عليّ ، وأنا أفعل ذلك ، لأضمن الوحدة ، ولأني اعتزمت أن أجعل التجربة الأولى في بيتي . فلما وثقت أني قد أحكمت التنكر ، وأني أستطيع أن أقوم وأقعد وأمشي ، وأحرك رأسي ، وألمس لحيتي ، وأفتح فمي ، وأرفع حاجبي على هيئة المستغرب ، وأضحك ، وآكل وأشرب من غير أن تسقط اللحية أو ينحرف أحد الحاجبين عن قومه ، أو يتدلى شارب ، على حين يبقى الآخر مفتولاً — خرجت على أهلي ، وعلى وجهي هذه الأشياء ، وفي يدي عصا غليظة أتوكأ عليها وقد تقوست قناتي من الهرم ، فلم تكد تقع على العيون في مدخل الباب حتى صرخت أمي وجدتي وأسرعتا فسترتا وجهيهما عن هذا الشيخ الغريب ؛ وكان أخي الصغير معهما فوثب إلى قدميه وصاح بي يسألني أنا من ؟ ويأمرني أن أخرج ، وينعتني بقلة الحياء وسوء الأدب ويهددني بالشرطة ، وأنا أقول له بصوت يرعش من الكبر وما يجره من الضعف « حلمك ، حلمك يا بني ! » فيأبى أن يكون حليما ، ولا يعبأ بشيخوختي ، ولا يترفق بوهني البادي ، ويدفعني عن الباب فأكاد أسقط على الأرض ؛ فأنه صبي قوي ، وأنا شيخ هِمٌّ أقوم على العصا ، فلم تبق لي حيلة إلا الخروج من البيت كما أمر ...

خرجت مطمئناً واثقاً ؛ وإذا كان أخي — ابن أمي وأبي — لم يعرفني فكيف يعرفني الاخوان والخلان ؟ ومن ذا الذي يمكن أن يفطن إلى أن هذه الغابة التي زرعتها حول وجهي وسترت بها شبابي جليبة ؟ وكان انخداع أخي — لا أمي ولا جدتي — هو الذي أراح بالي ، ونفى عني الخوف ؛ لأن فزعهما واستجياءهما منعا أن ينظرا ويحدقا ؛ أما أخي فأمره مختلف جدا ، وقد كان يمسك بكتفي ويهزني ويدفعني ويحدق في وجهي متعجباً لجرأتي ، منكراً لتطفلي . ومع ذلك لم يعرفني !

ومضيت إلى شارع الدواوين ، وكنا — اخواني وأنا — نختلف إلى « قهوة » فيه ، ونقضي هناك بعض الوقت ، نشرب « الخشاف » ونتبارى في لعب « الطاولة » ونصغي إلى الفونغراف وننظر إلى الرائحين والغادين ، فلقيت في بعض الطريق أحد هؤلاء الاخوان ، فوضعت يدي على كتفه وابتسمت له وقلت :

« هل تستطيع يا بني أن تدلني على لاظ اوغلي » فقال : « يظهر أنك لست من أهل الحي ؟ ! هذا هو أمامك مسافة مائة متر لا أكثر »

قلت : « آه ! لعن الله الشيخوخة ! وقاتل الله الضعف !

مقال سابق ما تنطوي عليه سياسة الدول الفاشستية ، أعني ألمانيا وإيطاليا ، من المغامرة وقصر النظر ، وبينا أن الخطر على سلام أوربا وسلام العالم يرجع قبل كل شيء إلى هذه السياسة الخطرة . بيد أنه مما يبعث إلى نوع من الطمأنينة أن تكون الدول الغربية ، أعني فرنسا وبريطانيا العظمى قد فطنتا إلى الخطر في الوقت المناسب ، واستطاعتا أن تصلا في تحقيق التسليح والتنظيمات الدفاعية إلى حدود بعيدة ؛ فاذا أضفنا إلى ذلك أن كفة روسيا إنما هي دائماً مع الدول الغربية ، فأن مما يشك فيه أن تذهب الفاشستية الصاخبة إلى المغامرة بأثارة حرب تلقى فيها مثل هذه القوى الساحقة ؛ وإذا كان ثمة سحب وأزمات خطيرة تكدر أفق السياسة الدولية ، فلسنا مع ذلك نذهب مع المتشائمين إلى حد الاعتقاد بأنها تنذر الحرب ، وأن الحرب قد غدت على وشك الاضطرام

(* * *)

مائتا متر ! يا سلام ! أقول لك ... ربنا المعين . نعم ربنا المعين »

وهممت بأن أنصرف عنه ، فقال : « هل تسمح بأن أتناول ذراعك وأساعدك على السير قليلاً ؟ »

فدعوت له بخير ، وبشرته ، وأكدت له أن الله سيجزيه أحسن الجزاء ، وتركت له ذراعي ، وسرنا معاً بعض الطريق ، وأنا أدب بالعصا وأقول من الضعف « إه ! إه » كما يفعل الشيوخ الذين انقطعت أنفاسهم ، فقد كانت اللحية التي لفت فيها وجهي عظيمة جدا وبيضاء كالقطن . وبلغنا « القهوة » المألوفة فهمست في أذنه بصوت خافت : « أقول لك يا بني ؟ سأستريح هنا قليلا . . . نعم فأن العجلة من الشيطان ، ولا خير في أن يحمل المرء على نفسه ويكلفها فوق وسعها »

وجلست الى أقرب مائدة ووضعت العصا عليها واضطجعت مغمض العينين حتى انتظمت أنفاسي وسكن اضطراب صدري ، وهدأت دقات قلبي ، ثم التفت الى صديق وقلت « الله يرحم أيام الشباب ! ! هل تعرف يا بني ؟ لقد كنت أصعد درج السلم — مائة درجة — خمس مرات أو ستا في اليوم ، جريا بلا تمهل أو ترفق ؛ وكنت أستحم في الشتاء القارص البرد من بئر في البيت ، مرتين ... مرة في الفجر ومرة في العصر ؛ وكنت أستطيع أن ألتهم نصف الخروف وحدي فضلاً عن غيره من الألوان ... أين هذه الأيام ؟ إيه ؟

وتنهدت : فقال : « يظهر أنك كنت قوياً متين الأسر في شبابك ! »

قلت : « قوي ؟ ولو لم أكن قويا لما عشت الى هذه السن . أما أقول لك ... كنت أتناول عيدان القصب ... سبعة وأربطها ثم أتناولها من الطرفين وأضرب بها ساق ، فتتكسر ... أعني العيدان هي التي كانت تتكسر لا ساق بالطبع ... هاها ... تتكسر ولا تبقى قشرة واحدة تصل قطعتي عود... فهل تستطيع الآن — وأنت شاب — أن تصنع هذا ؟ »

فهز رأسه وابتسم ، فقلت : « وعلى الرغم من ضعفي الظاهر وشيخوختي العالية ، لا أزال محتفظاً ببعض القوة ، ولولا أن الدخان قطع نياط قلبي لما رأيتني أنهج ... احذر يا بني أن تعتاد التدخين ! إنها نصيحة شيخ مجرب ... نصيحة لوجه الله . نعم لا تزال في قوة باقية ... هذه يدي ... اقبض عليها ... احتفظ بكل قوتك وانظر »

وفتحت له كفي ، ومددت إليه ذراعي فتناول يدي كما يفعل المرء عند المصافحة ، ثم قبض عليها وقبضت على يده ، وضغط وضغطت . ثم بدت عليه الدهشة ، وقد نسيت أن أقول إني كنت وما زلت قوي الذراعين جداً إذا اعتبرنا ضآلة جسمي ، وكل قوتي في يدي ، فلا عجب إذا كان قد دهش ، فقلت له : « أرأيت ؟ ؟ ألم أقل لك ؟ ؟ وتصور كيف كنت خليقاً أن أكون لولا فعل الدخان الملعون ؟ ؟ لقد خرب صدري من سوء تأثيره ... »

وسحبت يدي وفركتها فقد كانت ضغطته قوية لا رفق فيها قبحه الله ؛ وجاء في هذه اللحظة واحد آخر من إخواني وكان كثير العبث ، فوقف ينظر إلينا ويعجب ، ثم سأل صاحبه بصوت عال كأنما كان قد وثق أني أصم

« من هذا الرجل الفظيع ؟

قال : « هذا شيخ يستريح ... اسمع ... (لي) أعطه يدك ليمتحن قوتها .. »

فقلت : «لا يا بني ... تعبت ... »

وقال : اللعين الواقف « ماذا تصنع بكل هذه اللحية ؟ أليس في بيتك مقص ؟ أو مخرطة ؟ أو منشار ؟ »

فخطر لي أن أمازحه — وليتني مافعلت — فقلت : « لافائدة . وما غناء المقص ؟؟ إنه يتقصف إذا لامسها ... والمنشار ماحيلته في هذه الخيوط الحديدية ؟؟ لا ... لا تطمع في محوها ، فقد أعيانا أمرها منذ جئت إلى هذه الدنيا .. وقد كنت حين بدأت أتعلم المشي بعد الحبو أتعثر بها ... »

فقهقه اللعين ثم مد يده إليها وتناول شعرات منها وفتلها كما يفتل الحبل ، وأنا صابر جامد لا أتحرك مخافة أن أرتد برأسي فتتزحزح عن موضعها أو تسقط في يده ، وكنت أتبسم أيضاً لأتألفه وأخجله عسى أن يكف عن لحيتي ، فأطمعه حلمي ، فكف عن فتل الشعرات ، وتناول منها قبضة ، فاضطربت ، وجذب هو ، أو ارتددت أنا — لا أدري — فاذا هي في يده .؟؟

وقلت بعد أن سكتت العاصفة : « ما قولكما الآن ؟؟ ألم أخدعكما ؟؟ » وبدأت أقلد نفسي وأقول : « هل تستطيع يا بني أن تدلني على لاظ أوغلي ؟ ... لقد قطع الدخان أنفاسي ، فيحسن أن أستريح هنا برهة ... احذر يا بني الدخان ، فأنك ترى ما صنع

(البقية في ذيل الصفحة التالية)